الشعر

(تابع لما في الجزء الثالث)

ثم المعاني الشعرية قد تكون مخترعةً من مخيّلة الشاعر بان يتصور ما لا وجود لهُ في الخارج فيمثل منهُ صورةً مبتدَعة يحتذي فيها شبَه الصور الحقيقية وقد يعمد الى المعنى الواقعيّ فيكسوهُ ثوباً من عندهِ يبرز بهِ في صورة المخترَع على ما سنذكرهُ . والاختراع قد يكون في المعنى الواحد بان يتمثل لهُ صورةً غير حقيقية فيبرزهُ فيها على وجهٍ يكون بهِ ماثلاً للحسّ وقد يكون في سلسلة معانٍ يؤلف منها واقعةً تمثل الغرض الذي يقصدهُ على صورةٍ اوضح واشدّ تأثيراً في النفس . والامثلة من الاول عزيزةٌ لضيق مجال الفكر فيهِ واكثر ما تجدهُ في شعر المولدين لشدّة غوصهم على المعاني وايغالهم في استنباط الغريب كقول ابي الطيب المتنبّي

اذا نُكبت كنائنهُ استبنَّا لأنصلها بأنصلها ندوبا

يصيب ببعضها افواق بعضٍ فلولا الكسر لاتّصلت قضيبا

الكنائن جعاب السهام ونكبت اي قُلبت ليُنثَر ما فيها والندوب الآثار واصلها آثار الجراح بعد البرء والأفواق جمع فُوق بالضمّ وهو موضع الوتر من السهم . يقول اذا أُفرغت سهامهُ من كنائنها رأينا اثر بعضها في اطراف بعض لانهُ لسرعة رميهِ ومتابعتهِ اياها يقع نصل المتأخر على فُوق المتقدم فلولا ان ينكسر النصل بالفُوق لا تصل بعضها ببعض وصارت كالقضيب . والمعنى كلهُ مخترعٌ من عندهِ اذ لا يُتصوّر شيءٌ منهُ في الحقيقة . ومثلهُ قولهُ يصف نسوةً

حسان التثني ينقش الوشيُ مثلهُ اذا مسنَ في اجسامهنَّ النواعمِ

الضمير في مثلهُ للوشي وقولهُ في اجسامهنّ صلة ينقش . يقول انهنَّ لبضاضة جلودهنَّ اذا تثنينَ في مشيهنَّ وعليهنَّ الثياب الموشّاة اثّر الوشي في اجسامهنَّ فانتقش فيها مثل صورتهِ . ومن ذلك قول الآخر

حجبوها عن الرياح لاني قلت يا ريحُ بلّغيها السلاما

اراد المبالغة في تشديد الحجاب على المحبوبة وحرص قومها على منع كل صلةٍ بينها وبين العاشق فاستعار لذلك حديث الريح والسلام ثم ادعى انهم حجبوها عن الرياح مخافة ان تفضي اليها وتبلغها سلامهُ . ومثلهُ ما اجاز بهِ الآخر هذا البيت حيث قال

فتنفستُ ثم قلت لطيفي وَيك ان زرت طيفها[1] إلماما
حيّها بالسلام سرًّا والا منعوها لشِقوتي ان تناما

تمثل طيفهُ بمنزلة الرسول منهُ اليها فامرهُ ان يسلم عليها سرًّا عن اهلها لئلا يشعروا بهِ فيمنعوها عن النوم ايضاً . وكل ذلك من الخيال المحض كما ترى

واما الثاني وهو ما كان المخترَع فيهِ واقعةً تمثل الغرض المقصود من المتكلم فاكثر ما يجيء في الاقاصيص الموضوعة من الامثال والاساطير ونحوها وهو غير خاصٍّ بالشعر بل هو في النثر اكثر ومنهُ امثال لقمان واقاصيص كليلة ودمنة وفاكهة الخلفاء وبستان الازهار وغير ذلك وهو يكثر في الخُطَب والمناظرات وما جرى في طريقها على ما سبقت الاشارة

(١) كذا المشهور في رواية هذا البيت ولعل الاولى ان يقول زرت جفنها ونحوه اذ لا دخل لطيفها هنا كما لا يخفى

اليهِ وقد يكون في الشعر والنثر معاً كما في كتب المقامات وبعض المناظرات الفكاهية وصفات بعض المخلوقات والحوادث الطبيعية كما فعلهُ السيوطيّ في مقاماتهِ وابن حبيب في كتابهِ نسيم الصبا وغيرهما . واما في الشعر فاشهر ما جآء منهُ كتاب الصادح والباغم للبحّاري ومما كتب في ايامنا كتاب العيون اليواقظ للمرحوم محمد بك عثمان جلال المصري ولعلّ اقدم ما سُمع منهُ عند العرب ما رُوي في ديوان مجنون ليلى منسوباً اليهِ وهو قولهُ من قصيدة

وكنتِ كذئب السوء اذ قال مرةً لبهمٍ رعت والذئب غرثان مُرمِلُ
ألستِ التي من غير شيءٍ شتمتني فقالت متى ذا قال ذا عامَ اولُ
فقالت وُلدتُ العامَ بل رمتَ كذبةً فهاك فكاني لا يهنئك مأكلُ

ثم زاد عليهِ فقال

وكنتِ كذبّاح العصافير دائباً وعيناهُ من وجدٍ عليهنَّ تهمِلُ
فلا تنظري ليلى الى العين وانظري الى الكف ماذا بالعصافير تفعلُ

وقد جآء شيءٌ من ذلك في شعر المتنبي وهو قولهُ

يقول بشِعب بوّان حصاني أعن هذا يُسارُ الى الطعانِ
ابوكم آدمٌ سنّ المعاصي وعلّمكم مفارقة الجنانِ

ومن هذا اكثر القصائد الطَرَدية وكثيرٌ من الخمريات ولا سيما الموشحات منها وابلغ ما جآء في الطرديات ارجوزة الشيخ جمال الدين بن نباتة التي امتدح بها الملك الافضل فانهُ اتى فيها على الغاية التي لا تُدرَك وهي مؤلفة من نحو مئة وستين بيتاً ذا قافيتين ولولا ضيق المقام لاوردنا شيئاً من بدائعهِ

فيها واختراعاتهِ وقد رواها باسرها صاحب خزانة الادب في نوع الانسجام فمن احب الوقوف عليها فلينظرها هناك

واما سائر المعاني الشعرية فغالب ما فيها ان يعمد الشاعر الى المعنى الواقعيّ فيفرغهُ في قالبٍ من المجاز من استعارة ونحوها او يقرنهُ بشيءٍ من محاسن التشبيه او يضمّ اليهِ معنًى آخر يناسبهُ او يضادّهُ بحيث تتمّ هناك صورةٌ كاملة على نحو ما تقدم الكلام فيهِ او يتفنن بغير ما ذُكر من تعداد وصفٍ يجري فيهِ على طباقٍ او مراعاة نظير او غير ذلك من الانواع البديعية فيُلقي عليهِ في كل ذلك شبهاً من الاختراع . ولا بأس ان نمثل على بعض هذه الاطراف بما يحضرنا من شواهدها على قدر ما يسمح بهِ المقام فمن ذلك البيت المشهور للوأواء الدمشقي

وامطرت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقت وروداً وعضّت على العنّاب بالبَرَدِ

فان المعنى في هذا البيت انها بكت فاجرت دمعها على خدّيها وعضت على انامِلها جزعاً وهو معنًى عاميٌّ لا شيء فيهِ من الشعر ولكنهُ عدل عن ذلك الى تصويرهِ بالاستعارات التي رأيتها فجاء بالبيت كلهِ مجازاً وبذلك خرج المعنى الى الخيال وصار يُعَدّ من عزيز الاختراع . واغرب منهُ وابعد في مذهب الخيال قول ابن سناء الملك

تلهّب ماء الخدّ او سال جمرهُ فيا ماء ما أذكى ويا جمر ما أندى

اراد هنا ان يصف الخدّ بالبياض والحمرة فشبه بياضهُ بما فيهِ من الصفاء والبريق بالماء وشبه حمرتهُ بالجمر ولكنهُ عكس فجعل التلهب للماء والسيلان للجمر لما بينهما من التداخل أو لتوهم انعكاس لون الحمرة على البياض حتى

يُتخيل انهُ متلهب فاتى بالابداع الذي لم يُسبق اليهِ . ومن ذلك قول ابن ناجية الدمشقيّ في صفة الخمر

وحمرآءَ قبل المزج صفرآءَ بعدهُ اتت بين ثوبي نرجسٍ وشقائقِ
حكت وجنة المعشوق صِرفاً فسلطوا عليها مزاجاً فاكتست لون عاشقِ

فانهُ شبهها اولاً بالنرجس والشقائق فجمع بين لونيها مع مراعاة النظير في المشبه بهما اذ كلاهما من الزهر وعبّر عن اللون بالثوب استعارةً لهما وللنرجس والشقيق فخرج بالمعنى عن الحقيقة الى الخيال . ثم شبهها وهي صِرف بلون وجنة المعشوق وبعد المزج بلون وجنة العاشق فزاد في الابداع بقلبها من لون احدهما الى لون الآخر وحسن هذا الطباق هنا ما لهُ نهاية . ومن ذلك قول ابن ابي حفصة

ولما التقينا للوداع ودمعها ودمعي يفيضان الصبابة والوجدا
بكت لؤلؤًا رطباً وفاضت مدامعي عقيقاً فصار الكل في نحرها عقدا

ذكر اولاً بكآءهما عند الوداع ثم جعل دمعها كاللؤلؤ ودمعهُ كالعقيق وهما من التشبيه المطروق . ولما جعل دمعها ودمعهُ لؤلؤًا وعقيقاً جعلهما عقداً في نحرها لانهما اجتمعا هناك وبهذا استولى المعنى على تمامهِ وبرز في شكلٍ مبتكر . ومن ذلك قول ابن ابي الحديد وقد ذكر اللؤلؤ والعقيق عرضاً واتمّ المعنى من جانبٍ آخر

ولما برزنا لتوديعهم بكوا لؤلؤًا وبكينا عقيقا
تولّوا فأتبعتهم ادمعي فصاحوا الغريقَ وصحت الحريقا

فان ما في الاشطر الثلاثة الاول من الكلام المألوف ولكنهُ لما جآء بالشطر

الاخير اخرج المعنى الى صورة الاختراع بحيث كان ما تقدمهُ كالتوطئة لهُ . ومرجع الحسن فيهِ الى الطباق بين الغريق والحريق لانهُ لو وقف على ذكر الغريق وهو مقتضى الكلام السابق كان المعنى تافهاً مبتذلاً اذ ليس فيهِ الا المبالغة في كثرة الدمع ولكنهُ لما ذكر بعدهُ الحريق يعني بحرّ انفاسهِ تم المعنى وبرز في هذه الصورة المعجبة . ومما ينتظم في هذا السلك نحو قول المتنبي في سيف الدولة وقد اصابهُ المطر في بعض اسفارهِ

ولما تلقّاك الغمام بصوبهِ تلقّاهُ اعلى منهُ كعباً واكرمُ
فباشرَ وجهاً طالما باشر القنا وبلّ ثياباً طالما بلها الدمُ

فان مفاد البيت الثاني ان المطر باشر وجه سيف الدولة وبلّ ثيابهُ ولو عبّر بهذا فقط لم يكن في شيء من الشعر ولكنهُ لما ضمّ الى مباشرة المطر لوجههِ ان وجههُ طالما باشر القنا اي كافح الرماح والى بلهِ لثيابهِ انها طالما بلّتها دماء الفرسان ظهر المعنى في ثوبٍ آخر مع زيادة وصف الممدوح بالشجاعة والثبات

(ستأتي البقية)

الرجال المراضع

لا شك ان المطالع يقف عند قراءة هذا العنوان موقف الاستغراب لبعدهِ في بادي الرأي عن الاحتمال اذ الإرضاع ليس من الاعمال التي يمكن ان ينوب فيها الرجل عن المرأة لتوقفهِ على عضوٍ مخصوص لم يُخلَق في الرجل وقد سُمِع في النوادر ان في العجائز والابكار من تُرضع اذا دعاها داعي الحنوّ ولكن هذا مع غرابتهِ ليس من الامور المستحيلة لوجود